فريق موقع الآجري للتفريغ

سلسلة تفريغات "الثالثة"

(١٧)

شَرحُ

كِتَــابِ الكَبَــــائِرِ وَتَبْيِينِ الْمَحَارِمِ

تَأْلِيف

الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِٱللهِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ عُثْمَانَ بنِ قَايْمَازَ الذَّهَبِيِّ

٦٦٣-٧٤٨ هـ

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الكَبِيرَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والتِّيهُ

النسخة الإلكترونية الأولى

www.ajurry.com

[أشرطة مفرغة]

بسم الله الرحمـٰـن الرحيم

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَة

الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والتِّيهُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧].

[الشرح]

ثمّ ذكر –رحمه الله– هـٰذه الكبيرة، كبيرة (الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والتِّيهُ)، وكلها تدور حول معاني متقاربة: الكبر والفخر والخيلاء والتعالي والترفع والتيه والعجب بالنفس ونحو ذلك، كلها تدور حول معنى واحد.

وهـٰذه الكبيرة من أشنع الكبائر وأفظعها، لأنّ العبد يتعالى بنفسه ويترفّع ويرى أنه أرفع من الناس وأعلى من الناس وأميز منهم؛ و لهـٰذا له من العقوبة ما ليس لغيره كما سيأتي في النصوص.

بدأ أولاً بقول الله –عزّ و جلّ–: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧]، وهـٰذا فيه أن الكبر يرتقي بصاحبه إلى جحد الحقائق وغمط الناس وبطر الحق، إضافة إلى ما فيه من التعالي والترفع.

وفي الآية أن الإنسان يتعوّذ بالله من الكبر و يتعوّذ بالله من المتكبّرين.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل:٢٣].

[الشرح]

وهـٰذا فيه أن المستكبر يبغضه الله ولا يحبه.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[غافر:٥٦].

[الشرح]

ثمّ أورد هـٰذه الآية، و فيها أيضا خطورة الكبر على صاحبه و أن من خطورته المجادلة بآيات الله بغير سلطان، ويكون الباعث على هـٰذه المجادلة الكبر الذي في صدر الإنسان، فالكبر خطره عظيم على صاحبه، ومن خطورته أنه يردّ الحق ولا يقبله، ويجادل بغير علم كِبْرا، لما قام في قلبه من الكبر، قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[1].

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهـٰذا يدل على خطورة الكبر وعقوبة المتكبرين، أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[الشرح]

هـٰذه عقوبة له من جنس عمله، هو تعالى فوضعه الله، خسف به الأرض «فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا» يتقلب فيها إلى يوم القيامة، ويتردى فيها إلى يوم القيامة.

[المتن]

وَقَالَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ».

---

[1] وأيضا موجودة في السور التالية: الأعراف الآية (٢٠٠)، النحل الآية (٩٨)، فصلت الآية (٣٦).

[الشرح]

وهـٰذا جزاء من جنس العمل، يعني هم تكبّروا و تعالوا فوضعهم الله، ويؤتى بهم يوم القيامة أمثال الذّر يطؤهم الناس بأقدامهم.

[المتن]

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَوَّلُ ذَنب عُصِيَ اللهُ بِهِ الْكِبْرُ، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]. فَمَن اسْتَكْبَرَ عَلَى الْحَقِّ كَمَا فَعَلَ إِبْلِيسُ لَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ.

[الشرح]

ثمّ ذكر بعض قول بعض السلف أن أول ذنب عُصي به الله الكِبر، وأورد الدليل على ذلك قوله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]، أول ذنب عُصي الله به الاستكبار، والاستكبار ترتَّب عليه الامتناع من السجود، أمره الله -تعالى- بالسجود فامتنع للكبر الذي قام في نفسه، فأوّل ذنب عصي الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- به هو الكبر، فمن تكبّر شابه إبليس.

[المتن]

وَعَن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

[الشرح]

وهـٰذا أمارة الكبر وعلامته مبيّنة في هـٰذا الحديث، «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» ، أو «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» كما في اللفظ الثاني، فهـٰذه علامة الكبر إذا وُجدت، هـٰذا دليل على الكبر، أن يقابل الحق بالسفه وأيضا يغمط الناس حقوقهم، فإذا كان بهـٰذه الصفة فهـٰذا متكبّر، ولهـٰذا مرّ معنا أولا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر:٥٦]، فهـٰذا كلّه مما يُورثه الكبر.

أيضا إبليس الكبر الذي قام في نفسه جعله يأبى السجود كما أمره الله -جلّ و علا.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨].

[الشرح]

ثمّ أورد هـٰذه الآية وفيها أن المختال والفخور لا يحبهما الله –تعالى–، المختال في مشيته، الاختيال في المشي، يمشي متبخترا مختالا يرى نفسه أزيد من غيره، وهو الفخور بكلامه، فالاختيال في الفعل، والفخر بالكلام والقول.

[المتن]

وَقَالَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «يَقُولُ اللهُ تَعَالىٰ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَن نَازَعَنِي فِيهِمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. الْمُنَازَعَةُ: الْمُجَاذَبَةُ.

[الشرح]

ثمّ أورد هـٰذا الحديث في خطورة التكبر والتعالي والترفع على الناس، أن الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– يقول: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» والمعنى أن العظمة بمثابة الإزار والكبرياء بمثابة الرداء، يعني بمترلته، فصفة الله هنا هي العظمة و الكبرياء، فقوله: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» أي هما بمثابة بمترلة الإزار والرداء، مثل هـٰذا قول النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الحديث: «الأنصار دثار والناس شعار»، فالدثار هو الذي يلي البدن من اللباس وهو أقرب، فالأنصار بمترلته، والدثار هو اللباس الذي يكون فوقه، وعموم الناس بمترلته، فإذاً قول: «الأنصار دثار والناس شعار» هـٰذا المراد به أنه بمترلة الشعار بمترلة "الدِّثَار" وهٰذا معنى معروف في اللّغة.

الصفة هنا العظمة والكبرياء، ابن تيمية –رحمه الله– استنبط من هٰذا الحديث استنباطا لطيفا أُشير إليه عندما تحدث عن التكبير الوارد في الصلاة وأنّ افتتاحها التكبير، قال: "ولا يغني عنه لفظ آخر حتى ولو كان بمعناه أو بما يقاربه"؛ بمعنى لو أنّ قائلاً قال: الله أعظم لا يحصل افتتاح للصّلاة بذلك، وهو تحدّث عن هٰذا الموضوع وأطال، قال: "والتكبير شأنه أعظم من التعظيم"، التكبير فعلا أعظم من التعظيم، وأورد هٰذا الحديث مُستدلًّا به قال: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي»، قال: "الرداء أعلى من الإزار"، والرداء أعلى، و هٰذه لفتة لطيفة جدّاً في الاستنباط في هٰذا الموضوع، موضوع المفاضلة.

[المتن]

وَقَالَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِما، فَقَالَت الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يِدْخُلني إِلَّا ضُعفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهمْ، وَقَالَت النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِين وَالْمُتَكَبِّرِين، فَقَالَ اللهُ تعالىٰ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، الْحَدِيثُ.

[الشرح]

قوله: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا» هٰذا اختصام حقيقة، والجنة تكلمت حقيقةً قالت هٰذا الكلام: «يَا رَبِّ، مَا لِي يِدْخُلني ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ»، وهٰذا قولٌ بلسان المقال لا بلسان الحال؛ بل هٰذا قول حقيقة تكلمت الجنة والنار أيضا تكل|مت قالت: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ»، هٰذا كلام حقيقي، والله على كل شيء قدير، إن الله على كل شيء قدير، والله -عز وجل- ينطقها و ينطق الجنة، والشواهد على ذلك في أدلة كثيرة جدًا، ولا يصح أن يقال هٰذا كلام بلسان الحال؛ بمعنى أنها لم تتكلم حقيقة ولكن حالها هو هٰذا، لا؛ هٰذا تأويل، فهي تكلّمت كما أخبر النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وفي القرآن السمٰوات والأرض قالتا: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:١١]، وفي القرآن قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤]، والنّصوص في هٰذا المعنى كثيرة.

الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- سمعوا حصى في يد النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: "سبحان الله، سبحان الله "، و النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إني لا أعلم في مكة حجراً يُسلِّم علي إلا مررت عليه».

فهٰذا الكلام حقيقي بلسان المقال ليس بلسان الحال والله على كل شيء قدير، ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥]، الرِّجْل تتكلم يوم القيامة واليد تتكلم، الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- على كل شيء قدير، فلا يصح أن يقال هٰذا الكلام بلسان الحال.

الشاهد من الحديث: قول النار: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ»، وفيه أن المتكبّر والجبار من أهل النار الذين أُوثرت بهم النار و كانوا من أهلها.

وقوله في الحديث: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، قوله في الحديث للجنة: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، (الرحمة هنا مصدر مضاف إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، مصدر مضاف إلى الله، وقال بعض العلماء أن المصدر المضاف إلى الله تارة يراد به الصفة وتارة يراد به أثرها وهٰذا يُعلم بالسياق، فإذا نظرت السياق هنا قول: "الرحمة" قول الله جلّ: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي» السياق يدل على أن هٰذا المصدر المضاف إلى الله صفة أو أثر الصفة؟ أثر الصفة، بينما قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾[الروم:٥٠]، "الرحمة" هنا المضافة إلى الله الصفة وليس الأثر.

[المتن]

وقال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

[الشرح]

والآية هٰذه فيها أن الله -عز وجل- جعل الآخرة لمن ليسوا أهل كبر وأهل علو في الأرض وتَرفُّع على الناس، وسبق أن مرت معنا هٰذه الآية فيما يتعلق بالإمام الجائر.

[المتن]

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨]. أَيْ: لَا تَمِلْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ مُعْرِضًا مُسْتَكْبِرًا. وَالْمَرَحُ: التَّبَخْتُرُ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذه الآية، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تمله كما قال المصنف، وقيل أن أصل الكلمة من: "الصَّعر" وهو داء يصيب الإبل في رقابها ويؤذيها ويؤلمها فتميل رقبتها بسببه فتصبح تمشي وهي مائلة برأسها ورقبتها بسبب الصَّعَر الذي أصابها في رقبتها وآلمها فأصبحت الرقبة مائلة، يقال: إنّ هٰذا أصلها، فهنا قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُميل خدّك للناس على وجه التكبر والتعالي، وعادةً المتكبر يُظهر لمن أمامه كِبْرَه بتصعير خده، يُصْعِر يعني يُظهر تكبره وتعاليه بإمالة خده لمن أمامه أو لمن يتكبر عليه.

والأمر الثاني: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي مختالا في مشيتك متعاليا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، الآية الأخرى في سورة الإسراء قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ

﴿الْجِبَالَ طُولاً﴾[الإسراء:٣٧]، وهٰذه لو تَفَكَّر فيها المختال المتكبِّر منعته من الكبر؛ لأنه مهما ترفعت وتعاليت فطول الجبال إلى جنبك لن يبلغ طولك طول الجبال، فمهما تعاليت بجسمك وترفَّعْت لن يبلغ طولك طول الجبال، ولهٰذا جاءت السنة إذا صعد الإنسان عالٍ ورأى نفسه رفيع ومرتفع وعال قد يدخل في نفسه شيء من الكبر فيُسَن له في هٰذا المقام أن يقول: الله أكبر حتى ينطرد عنه الكبر وتتطامن نفسه، فمهما ترفَّع الإنسان فإنه لن تبلغ طوله طول الجبال، حتى ولو كان أطول رجل في العالم ما يبلغ طوله طول الجبال، و﴿لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ يعني وإن مشيت متبخترا فمشيك لا يؤثر في الأرض، من تكون أنت؟!، فهٰذا بيان لحقارة المتكبر ووضاعته، وأنه لو تفكر في هٰذا المحيط الذي حوله، الأرض التي يمشي عليها والجبال التي جنبه هٰذا كافٍ في طرد الكبر عنه وحصول التواضع.

وفي هٰذا أيضا دعوة للتفكر، وهٰذا باب عظيم حقيقة في الذّل والتواضع لله والبُعد عن التكبّر، وأبين لكم هٰذا بشكل واضح: عندما يدخل إنسان في تفكّر في هٰذا الباب فينظر أولا كما في الآية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، ينظر في الأرض التي يمشي عليها وفي الجبال المحيطة به، وينظر لخلق نفسه مع خلقها، يجد أنه لا شيء بالنسبة للجبال والأرض التي هي محيطة به، وسِّع الدائرة وانظر لحالك مع الأرض كلّها وما فيها، ماذا تكون أنت؟!، وسّع الدائرة أكبر وانظر لحالك مع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وتفكر في الكرسي الذي وسع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وانظر إلى العرش العظيم، الكرسي في العرش كحلقة في فلاة، تجد نفسك شيء صغير يَذهب عنك التكبّر، أنت شيء صغير جدًّا، ذرّة في ملك عظيم يجعلك تتواضع لله وتذل وتنكسر ويَذهب عنك رؤيتك لنفسك، ينطرد عن قلبك رؤيتك لنفسك وإعجابك بشخصك يذهب كله، ما أنت إلا ذرة صغيرة من ذرات خلقها ربّ العالمين وأوجدها، فتعرف من أنت! ولهذا المتكبر لم يعرف نفسه! لم يعرف نفسه، وإلا لو عرف نفسه وعرف ماذا يكون لما وقع فيه هٰذا الكبر.

[المتن]

وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ؛ أَكَلَ رَجُلٌ عِندَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ. قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ». فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ بَعْد. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا فيه خطورة الكبر على الإنسان، المتكبر يعني من أخطر ما يكون عليه في كبره أنه يرد الحق، دائما بسبب الكبر الذي عنده يرد الحق، بينما إذا كان متواضعا تجد أنه إذا قيل له الحكم أو بيّن له الأمر يسمع ويقول لك أعرف ويُصغي ويلوم نفسه بسبب التواضع الذي عنده؛ لكنّ المتكبر نفسه متجهة دائما إلى رد الحق ومنعه، وهٰذا أخطر ما يكون على المتكّبر وهو يجني عليه جناية بالغة، ولهٰذا لو عدنا نتفكّر في ذات الكبر من خلال النصوص التي وردت، مرّ معنا في الآية الذين يردون آيات الله قال الله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر:٥٦]، وهنا فيه قضية سهلة غير مكلفة قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: «كُلْ بِيَمِينِكَ» وهٰذه دعوة مباركة اليمين أنظف وأنقى وأكمل وأحسن يعني دعوة إلى خير؛ لكن لم يمنعه من القبول إلا الكبر، لم يمنعه من القبول إلا الكبر، قال: (مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ) فكانت العقوبة قال: «لَا اسْتَطَعْتَ» ولاحظ أن المتكبر الذي منعه كبره من قبول الحق يكون عنده المخاصمة والمجادلة بالباطل، المخاصمة والمجادلة بالباطل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾[غافر:٥٦]، فهنا الرجل قال له: («كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ)، وهو مستطيع، ليس المانع عدم الاستطاعة إنما المانع هو الكبر، فالواجب على المسلم أن يتلقى الشريعة كلها بماذا؟ بانشراح صدر، ولو رد سنّة من السنن لا يردها إلا لشيء من الكبر ولو قليل في نفسه، وإلا لو طرد عنه الكبر وأصبح متواضعا قَبِل.

وأيضاً هنا نستفيد فائدة أن الإنسان لا يستهين بأمور السنن، فهٰذه قضية قد يراها بعض الناس قضية سهلة، وربما يقول بعضهم يعني إيش المشكلة الكبيرة لو أن الإنسان شرب بيساره؟!، فبعض الناس يستهين بها أو يستهين بالأمر.

ومن العادات الآن حقيقة انتشرت في الآونة الأخيرة شرب الماء على الطعام أو شرب العصير أو المشروبات الباردة على الطعام باليد اليسار، هٰذا كثير ما يحصل، الشرب باليد اليسار بحُجة أن اليد اليمين فيها طعام وممسكة بالطعام فتجد إذا جاء وقت الشرب يمسكن الماء بيساره ويشرب، وهو في نفسه يعني كأنه قال: أنا أريد أن أعمل أمر طيب أني لا أريد أن ألوث كأس الماء، والكأس سيُغسل سيُغسل؛ يعني على كل حال سيُغسل، فكثير من الناس يلاحظ، هٰذه الملاحظة انتشرت في الآونة الأخيرة عند الطعام الماء والعصير وهٰذه الأمور كلها باليسار وأيضا نوع الطعام الحديث (الساندوتش) في اليد اليمين وكأسة عصير حدث ولا حرج بالشرب باليسار، اليمين فيها (الساندوتش) واليسار

فيها العصير، ويأكل بهذه ويشرب بهذه، هذا مُحرَّم، لا يجوز الأكل باليسار إلاّ لمن فعلا يده اليمين غير مستطيعة، لا يكون أن يمنعه من عدم الأكل بها مانع آخر.

الحديث (**لَا أَسْتَطِيعُ**) يدلّ على أنّ غير المستطيع معذور، إذا كان غير مستطيعا فعلا فهو معذور، لكن هنا هذا أمره آخر قال: (**مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ**)، إذاً لو كان فعلا الذي منعه عدم الاستطاعة معذور، لكن هذا ليس الذي منعه عدم الاستطاعة، وإنما الذي منعه هو الكبر.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلِّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثمّ أورد قول النّبي –صلى الله عليه وسلّم-: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلِّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**»، العتلّ: الغليظ الشّديد في كلّ شيء، والجوّاظ: هو المختال في مشيته وقيل الفاجر، والمستكبر: أي المتكبر، فهؤلاء أخبر النّبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّهم من أهل النّار.

[المتن]

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ يُونُس الْيَمَامِي، حَدَّثَنَا أَبِي، نَبَّأَنَا عِكْرِمَة بْنَ خَالِد، أَنَّهُ لَقِيَ ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ وَيَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» هَٰذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

[الشرح]

وهذا فيه غضب الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- على المتعاظم المختال.

[المتن]

وَصَحَّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُتَسَلِّطٌ، وَغَنِيٌّ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ».

قُلْتُ: وَأَشَرُّ الْكِبْرِ مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الْعِبَادِ بِعِلْمِهِ، وَتَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ بِفَضِيلَتِهِ، فَإِنَّ هَٰذَا لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ، فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْآخِرَةِ كَسرَهُ عِلْمُهُ، وَخَشَعَ قَلْبُهُ، واسْتَكَانَتْ نَفْسُهُ، وَكَانَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمِرْصَادِ، فَلَمْ يَفْتُرْ عَنْهَا؛ بَلْ يُحَاسِبُهَا كُلّ وَقْتٍ وَيُثَقِّفُهَا؛ فَإِنْ غَفَلَ عَنْهَا جَمَحَتْ عَنِ الطَّرِيقِ

الْمُسْتَقِيمِ وَأَهْلَكَتْهُ. وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْفخْرِ وَالرِّيَاسَةِ، وَنَظَرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ شَزَرًا، وَتَحَامَقَ عَلَيْهِمْ، وَازْدَرَى بِهِمْ؛ فَهٰذَا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبْرِ، وَلَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَال ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.

[الشرح]

ثم نبّه المصنّف في خاتمة هـٰذا الكلام على هـٰذه الكبيرة، على أن أشرَّ الكبر من تكبّر على العباد بعلمه، من تكبّر على العباد بعلمه، لأنّ العلم هو الذي يهدي ويدلّ إلى التّواضع ويرشد إليه، فبالعلم يعرف قدر التّواضع وفضيلته، ومكانة التّواضع، فإذا كان الإنسان بالعلم الذي به يُعرف التّواضع وخطورة الكبر يتكبّر، هـٰذا أشرُّ النّاس، هـٰذا من أشرِّ النّاس.